عَالَمِيَّةُ الإسلامِ ، وعولمةُ الغربِ(١)

عالميةُ الإسلامِ تعني أنّ الإسلامَ لمْ يكنْ يوماً للعربِ ، ولمْ يكن القرآنُ يوماً لقريشٍ ، فهو منذُ اليومِ الأولِ يخاطبُ العشيرةَ الأقربين ، ويخاطبُ قريشاً ، والعربَ أجمعين ، بل يخاطبُ الناسَ كافّةً بمبدأٍ واحدٍ ؛ ويطلبُ منهم الانتهاءَ إلى هدفٍ واحدٍ ، هو إخلاصُ العبوديةِ للهِ ، والخروجُ من العبوديةِ للعبادِ إلى العبوديةِ لربِّ العبادِ ، بل إنّ هذه الحقيقةَ هي فحوى دعوةِ الأنبياءِ جميعاً ،

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

إنّ هذا الدينَ ليس إعلاناً لتحريرِ الإنسانِ العربيِّ ، وليس رسالةً خاصّةً بالعربِ ، إنّ موضوعَه هو الإنسانُ ، أيُّ إنسانٍ ، وإنّ مجالَه هو الأرضُ ، كلُّ الأرضِ ، فإنّ اللهَ سبحانه ليسَ ربًّا للعربِ وحدَهُم ، ولا حتى لِمَنْ

(١) لفظ عالمية مصدر صناعي ، كما هو معروف في علم الصرف ، وهو لفظٌ عربيٌّ صِرف ، ولفظ عولمة ليس له وجود في المعاجم العربية ، وإن كان على وزن فوعلة ، كالحوقلة ، فيلحق بهذا الوزن ، غير أننا ألحقنا في العنوان كل لفظ بنظير من نُسِب إليه ، فقلنا : عالمية الإسلام ، وعولمة الغرب ، حتى تجانِسَ الغرابةُ اللفظيةُ للعولمةِ معناها الغربيَّ غيرَ الأخلاقيِّ .

يعتنقون الإسلامَ وحدَهُم ، إنَّ اللهَ هو ربُّ العالمين ، وهذا الدينُ يريدُ اللهُ منه أنْ يَرُدَّ العالَمين إليه ؛ وأنْ ينتزِعَهم مِن العبوديةِ للبشرِ ، ومِنْ أحكامٍ يشرِّعها لهم ناسٌ مِن البشرِ إلى العبوديةِ لخالقِ البشرِ ، وهذه هي العبادةُ التي لا يمكن أنْ تكونَ إلا للهِ ، ومَن يتوجّهْ بها إلى غير اللهِ يخرجْ مِن دينِ اللهِ ، مهما ادَّعى أنّه مِن هذا الدينِ بمكانٍ ، ولقد نصَّ رسولُ اللهِ ﷺ على أنَّ الاتباعَ هو العبادةُ ، فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : « أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ : « يَا عَدِيُّ! اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ » وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ ﴿ بَرَآءَةٌ ﴾ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلُّوهُ ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرَّمُوهُ »[١] .

قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لِرُسْتُمَ قائدِ جيشِ الفُرْسِ في القادسيَّةِ ، وهو يسألُه قبلَ المعركةِ : « مَا الذي جاءَ بكم ؟ فيجيبُه ربعيٌّ : إنّ اللهَ ابْتَعَثَنَا لنخرجَ مَن شاءَ مِن عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ اللهِ ، ومِن ضيقِ الدنيا إلى سَعَتِها ، ومِن جورِ الأديانِ إلى عدلِ الإسلامِ »[٢] .

وقد أَكَّدَتْ هذه الحقيقةَ آياتُ القرآنِ الكريمِ ، كما بيَّنَتْها الأحاديثُ النبويَّةُ ، والسلوكُ النبويُّ الشريفُ ، وهي كثيرةٌ ، نستعرضُ بعضاً منها :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [ص : ٨٧] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢١٨) .
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٧٠) .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] .

أمَّا العولمةُ كما يريدُها ، ويروِّج لها دُعاتها لا تعدو أنْ تكونَ تعبيراً معاصراً عن نزعةٍ تسلُّطِيَّةٍ قديمةٍ ، صاحبتْ كلَّ قوةٍ غاشمةٍ على مدارِ التاريخِ .

إنها تُضفِي طلاءً من الذهبِ على الأغلالِ الحديديةِ ، وتتوارَى خلفَ أقنعةٍ زائفةٍ مِنَ العباراتِ الجذّابةِ ، والشعاراتِ البرّاقةِ ، كالعدالةِ ، والديمقراطيةِ ، والحريةِ ، والسلامِ العالميِّ ، والتعايُشِ السِّلميِّ ، وحقوقِ الإنسانِ ، ومكافحةِ الإرهابِ . . . فهي علقمٌ قديمٌ في آنيةٍ جديدةٍ .

ولعلَ مِن أبرزِ مظاهرِ هذه العولمةِ انهيارَ السدودِ بين الحضاراتِ والثقافاتِ ، وفرضَ الهيمنةِ الغربيةِ في مختلفِ المجالاتِ ، سياسةً ، واقتصاداً ، وإعلاماً ، وفكراً ؛ توطئةً للاستيلاءِ على ثرواتِ الشعوبِ ، وشلِّ قدراتِها الوطنيةِ ، ومسخِ هويّتِها ، وخصوصياتِها الحضاريةِ ، وتحويلِ أسواقِها المحليةِ إلى أسواقٍ استهلاكيةٍ ، تفتحُ الأبوابَ على مصاريعِها أمامَ الشركاتِ الأجنبيةِ لترويجِ منتجاتِها ، وتراكمِ أرباحِها .

وقد رأينا مِن ذلك بداياتٍ مؤسفةً ، لا تخطِئها العينُ ، تمثَّلَتْ في شيوعِ التقاليدِ ، والأزياءِ ، وأنماطِ الحياةِ الغربيةِ ، ومزاحمتِها لمثيلاتِها الوطنيةِ مع ما يجلبُه هذا الوافدُ الغربيُّ من مفهومات بلادِه وقيمِها ، ولعل

هذا يوضِّحُ الصلةَ بين شيوعِ هذه المظاهرِ ، ومظاهرِ التخنُّثِ ، وضعفِ التديُّنِ ، وانفراطِ عقدِ الأسرةِ ، وانتشارِ المخدِّراتِ ، والجريمةِ المنظَّمةِ .

ولقد وَعَى القومُ دروسَ التاريخِ فقدَّموا القوَّةَ الناعمةَ ـ وهي المرأةُ ـ على القوةِ الضاربةِ ؛ لأنّها أَقَلُّ استفزازاً للآخرين ، وأقلُّ ظهوراً لهم ، وأقْدَرُ على شلِّ قدراتِهم على المقاومةِ ، وأشدّ قتلاً لروحِ الاستبسالِ والمواجهةِ في صدورِهم .

وإذا كان الأسلوبُ التقليديُّ لدى القومِ قد تمثَّلَ في حمْلِ الآخرين على فِعْلِ ما تريدُ ، ولو باستخدامِ القوةِ المسلّحةِ فإنَّ الأسلوبَ الأمثلَ اليومَ يتمثلُ في حملِ الآخرينَ على إرادةِ ما تريدُ ، والإقبالِ عليه عن طواعيةٍ واختيارٍ ، وهذا يتوقَّفُ بطبيعةِ الحالِ على حُسْنِ تسويقِه ، وجاذبيةِ عرضِه من ناحيةٍ ، كما يتوقَّفُ على حجمِ الإغراءِ الذي تحمِلُه الجوائزُ التي تقدَّمُ ثمناً لِمَن يتعاونون مع القومِ من ناحيةٍ أخرى !

المشكلُ القائمُ حالياً لا يكمنُ في مبدإِ العولمةِ ، وإنّما يكمنُ في نوعيةِ هذه العولمةِ ، وخصوصياتِها ، وبنائِها ، فعولمةُ القطبِ الواحدِ فيها خصوصياتُ القطبِ القويِّ الواحدِ ، كالاحتكارِ ، وإرادةِ الهيمنةِ ، وسلوكيةِ الكيلِ بمكيالين ، بعيداً عن روحِ المشاركةِ ، والتنافسِ الحرِّ الشريفِ ، ومن خصوصياتِ القطبِ الواحدِ قانونُ تضخيمِ الأرباحِ ، ولو على حسابِ الأرواحِ ، وعدمُ خضوعِ هذا النظامِ للشرائعِ الإلهيةِ .

بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

وممّا يجدرُ التنبيهُ إليه ضرورةُ الفصلِ بين العالميةِ التي جاءت بها شريعةُ الإسلامِ ، والتي تُبْنَى على الوازعِ الدينيِّ ـ حيثُ إنّ الإسلامَ دِينٌ سماوِيٌّ ، وليس موضوعاً مِن الموضوعاتِ البشريةِ ـ وما تحملُه مِن رسالةِ حبٍّ ورحمةٍ إلى العالَمِ أجمعَ ، وبينَ العولمةِ ، وما تعنِيه مِنَ الهيمنةِ ، واستلابِ الآخرينَ لحسابِ قُوَى الاحتكارِ العاتيةِ ، بل لحسابِ حفنةٍ مِنَ المتضلِّعين في دماءِ الآخرين وأموالِهم .

إنّ العالميةَ الإسلاميةَ التي تحيلُ العالَمَ إلى قريةٍ كونيةٍ واحدةٍ ، يتمتَّعُ الإنسانُ فيها بحقِّ الاختيارِ ، ويسودُ فيها البِرُّ والقِسطُ ، ويتَفَيَّأ الإنسانُ فيها ظِلالَ العدلِ والرحمةِ ، وتُصَانُ فيها حرماتُ المخالِفين وحقوقُهم ، هذه العالميةُ يجبُ ألاَّ تَلتَبِسَ في ذِهنِنا بالعولمةِ التي يدعو لها حَمَلَةُ المشروعِ الغربيِّ ، والتي تحيلُ العالمَ إلى غابةٍ عالميةٍ واحدةٍ ، يأكلُ القويُّ فيها الضعيفَ ، ويزدادُ فيها الأغنياءُ غنًى ، والفقراءُ فقراً .

إنّ الاتِّجاهَ إلى العالميةِ برسالةٍ حضاريةٍ عادِلَةٍ لا حرجَ فيهِ ، ولا تثريبَ على دعاتِه ، ولكنَّ الحرجَ كلَّ الحرجِ إنما يكمنُ في روحِ الهيمنةِ ، والجشعِ ، والأنانيةِ ، والابتزازِ الذي تحملُه هذه العولمةُ الجامِحَةُ ، كما يدعو إليها أباطرةُ العولمةِ ، وقراصنتُها مِن غيرِ ضابطٍ من دِينٍ ، أو خلق ، فليس الحرجُ في التوجُّهِ إلى العالميةِ في ذاتِه ، والتعاملِ مع الكيانِ البشريِّ كأمةٍ واحدةٍ ، وإنما يكمنُ الحرجُ في المشروعِ الذي يحملُه القائمون على هذا التوجُّهِ ، عندما لا يَرَوْنَ في الآخرِين إلا أحجاراً

على رقعةِ الشطرنجِ ، يعبثون بمقدراتِهم ومصائرِهم كما يشاؤون ، الأمر الذي لا تُقامُ به دنيا ، ولا يصلحُ به دِينٌ ، ولا يزدادُ به العالَمُ إلا شقاءً فوقَ شقاءٍ .

إننا ـ نحنُ المسلمين ـ نحملُ مشروعاً حضارياً رائداً ، لُحمتُه الربّانيةُ ، وسُداه البرُّ والقسط ، نبذلُه إلى العالَمين ما داموا لا يقاتلوننَا في الدِّينِ ، ولا يصادرون علينا حقَّنا في أنْ نبسطَ دعوتَنا إلى الآخرين .

فليس على دعاةِ الدِّينِ الحقِّ ، والرسالةِ الخاتمةِ مِن حرجٍ أنْ يطُوفوا بدعوتِهم في المشارقِ والمغاربِ ، يُوَطِّئون للحقِّ مهاداً ، وينشرُون له أعلاماً في إطارِ قاعدةِ : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، تحتَ خيمةِ الربّانيةِ التي تَرعى حقوقَ المُوَافقين والمخالِفين ، حتى يتفيَّأَ العالَمُ ظِلالَ هذه الرحمةِ العامةِ ، يفيءُ إليها مِن هجيرِ الظلمِ ، ورمضاءِ الأَثَرَةِ ، والجشعِ ، والأنانيةِ ، ويجد له مَوقعاً في سفينةِ الإسلامِ ، التي تمخُرُ به عبابَ هذه الفتنِ المتلاطمةِ ؛ حتى ترسوَ على شاطىءِ النجاةِ في الآخرةِ .

إنّ هذه العولمةَ في إطارِها اللادينيِّ الجامحِ لَتحملُ في طيَّاتها بذورَ إخفاقِها ، وعواملَ انهيارِها ؛ فإنه لا دوامَ لظلمٍ ، ولا بقاءَ لتعسفٍ ولا جورٍ ، لقد حدَّثَنا القرآنُ الكريمُ عن دولٍ قامتْ ، ثمَّ زالتْ ، وعن حضاراتٍ صالتْ ، ثم انهارتْ ، قال تعالى :

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ [الفجر : ٦ـ١٤] .

وقال : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَالِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٧-٣٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠] .

قالَ أَحَدُ حُكماءِ الرومانِ حين وَقَفَ على أطلالِ روما : « إنَّ أولَ رجلٍ تسبَّبَ في خرابِ الإمبراطوريةِ هو الذي بَدَأَ يقدِّم لها الأسلابَ والغنائمَ » ؛ لأنّه هو الذي أثارَ لَدَى أهلِها شهوةَ النَّهبِ ، والسيطرةِ ، وحرَّكَ شياطينَ الأثرةِ ، والأنانيةِ الكامنةِ وراءَ جلودِهم ، وقديماً قال نابليون : « إنّ الإمبراطورياتِ تموتُ دائماً بمرضِ التخمةِ » ، أي : إنّ جوفَها يعجزُ عن هضمِ ما تلتهمُه من الأقاليمِ والشعوبِ ! .

ومما قيل في العولمة : « هي نظامُ دولةٍ أو بضعِ دولٍ على هذه الكرةِ الأرضيةِ ، أمّا ما تَبَقَّى منها فهو دولٌ سابحةٌ في هذا النظامِ الغريبِ ، بعضُها يعومُ على السطحِ بصعوبةٍ ، وعليه أنْ يثبُتَ ، وباستمرارٍ ، حَسَنَ النيةِ ، والطاعةِ ، والالتزامِ ، ومع ذلك فهو دائما مخطئٌ ، ومطلوبٌ منه أنْ يُكَفِّرَ عن ذنوبه ، وبعضُها الآخرُ غارقٌ في القاعِ إلى أجلٍ غيرِ مسمًّى ، وأصبحَ كلُّ ما يتماشَى مع رغباتِ تلكَ الدولِ الكبرى ديمقراطيةً وعدلاً ،

وكل ما يحقِّقُ مصالحَها هو حقوقَ إنسانٍ ، وحضارةً بشريةً ، ولم يَعُدْ مستغرَباً أنْ تصدرَ لوائحُ تحدَّد فيها قيمةُ الإنسانِ لدَى شعبٍ ، وما يقابلُها لدى الشعوبِ الأخرى كأسعارِ العملاتِ .

هذا العدوُّ الجديدُ الذي ظَهَرَ في التسعينياتِ هو دينُنا الإسلاميُّ الحنيفُ ، دينُ الأخلاقِ ، والعدلِ ، والمحبةِ ، الذي تَمَّ تشويهُه إعلاميًّا ، وتثقيفيًّا ، وتربويًّا ، ليغدوَ دينَ القتلِ ، والتطرُّفِ ، والإرهابِ ، فكلّما حدثَ اضطرابٌ في منطقةٍ ما مِنَ العالَمِ وُجِّهَتْ أصابعُ الاتِّهامِ للإسلامِ ، ولو لم يكن للمسلمين وجودٌ في تلك المنطقةِ ، وكلُّ عمليةِ تخريبٍ ، أو عملٍ إرهابيٍّ منفِّذُه هو مسلمٌ ، حتى يثبتَ العكسُ ، وغالباً ما يثبتُ العكسُ ، أما الاتّهامُ فيبقى كما هو ، وبالتوازي حُورِبَ الإسلامُ الصحيحُ مِن خلالِ تغذيةِ التطرُّفِ ، واستخدامِه في ضربِ الإسلامِ والمسلمين ، والآن يُصَوَّرُ هذا التطرفُ الذي جَرَتْ تنميتُه مِن خارجِ الأمّةِ الإسلاميةِ على أنّه الإسلامُ الحقيقيُّ ، وذلك إمعاناً في تشويهِ صورتِهِ الناصعةِ ، وإسرائيلُ أبرعُ مَنْ شَوَّهَ هذه الصورةَ ، وأيَّةَ صورةٍ حقيقيةٍ أخرى »[1] .

هذا وإنَّ الأهمَّ مِن هذا كلِّه أنْ نبعثَ في هذه الأمةِ روحَ المواجهةِ لهذه الأعاصيرِ ، وأنْ نستثيرَ مذخورَ طاقاتِها الإيمانيةِ والجهاديةِ ، وأنْ نرشدَ توجيهَ هذه الطاقاتِ على طريقِ المحافظةِ على الهويةِ ، واستئنافِ ما تَوَقَّفَ مِن مسيرتِها الحضاريةِ .

---

(١) مقاطع من كلمة السيد رئيس الجمهورية العربية السورية الدكتور بشار الأسد ، في مؤتمر القمة الإسلامي الذي عقد بالدوحة .

مفهومُ النَّصْرِ

ومفهومُ النصرِ مِن المفهومات التي التبسَ أمرُها على معظمِ المسلمين ، بل وعلى بعضِ المتحمِّسين لدعوتِه المباركةِ ، الأمرُ الذي أدَّى إلى اختلافِهم في أحكامِهم ومواقفِهم إزاءَ الأحداثِ الجاريةِ ، والمشهودةِ في عالَمنا الإسلاميِّ .

فمنهم من يظنُّ أنّ النصرَ هو تحقيقُ الأهدافِ الاجتماعيةِ ، أو الاقتصاديةِ ، أو السياسيةِ ، أو العسكريةِ ، ممّا يسعى إليه المؤمنون ، فإذا بَلَغُوا هذه الأهدافَ فهُمْ منتصرون ، وإلاّ فهم منهزمون!

وهذا فَهْمٌ قاصِرٌ ، لانغماسِه في الحساباتِ الماديةِ البحتةِ دونَ النظرِ إلى غيرِها .

ومنهم من يتوهّمُ أنّ النصرَ هبةٌ إلهيةٌ ، يمنُّ اللهُ بها على مَن يشاءُ من عبادِه ، من غيرِ اشتراطِ الاستحقاقِ لهذا النصرِ ، أو الاستعدادِ ، والتهيؤِ له ! وهذا فَهْمٌ خاطئٌ ، لأنه مخالِفٌ لسننِ اللهِ الكونيةِ ، قال تعالى :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء : ١٢٣] ، ولكن :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ولكنْ في إطارِ الصراعِ بين المؤمنين وأعدائِهم قد يستفحلُ الجورُ ، وقد ينتصرُ الظلمُ ، وقد يظهرُ البغيُ والفسادُ ، فأينَ نَصْرُ اللهِ ؟ النصرُ قد يكونُ مبدئياً ، وقد يكونُ واقعياً .

النصرُ المبدَئيُّ

يكونُ المسلمُ منصوراً نصراً مبدئياً حين يسعَى لتنفيذِ أوامرِ اللهِ

ونواهِيه ، في جميعِ ما جاءتْ به الشريعةُ ، وفي جميعِ الظروفِ والأحوالِ ، في جميعِ الأوقاتِ والأماكنِ ، في حدودِ ما لديه مِن إمكاناتٍ .

وبعبارةٍ أُخرى ، يكونُ المسلمُ منصوراً نصراً مبدئياً حين يكونُ قائماً بأمرِ اللهِ ، لا مِن القاعدين ، ساعياً للدفاعِ عن المبدإِ ، لا مِن الخاملين المخلّفين ، شاهداً أحداثَ الأُمةِ ، لا مِن المنعزلين .

فحسبُ المسلمِ نصراً أنْ يحملَ رسالةَ السماءِ إلى الناسِ ، أمّا هدايتُهم فأمْرُها بيدِ اللهِ تعالى ، وحسْبُه نصراً أنْ يعملَ على إصلاحِ المجتمعِ ، أمّا صلاحُه فأمْرُه بيدِ اللهِ تعالى ، وحسْبُه نصراً أنْ يقاومَ الظلمَ ، أمّا زوالُ الظلمِ فأمْرُه بيدِ اللهِ تعالى ، وحسْبُه نصراً أنْ يكافحَ لاستردادِ الأرضِ المغتصَبةِ ، وثرواتِ الأُمةِ المنهوبةِ ، أمّا ردُّها فأمْرُها بيدِ اللهِ تعالى ، وحَسْبُه نصراً أنْ يجاهدَ حتّى لا تكونَ فتنةٌ ، ويكونَ الدينُ للهِ في الأرض ، أمّا إطفاءُ الفتنةِ وهيمنةُ الحقِّ فأمْرُه بيدِ اللهِ تعالى .

وميزةُ هذا النصرِ أنّه حتميٌّ ، يتحقّقُ لمجردِ سعيِ المسلمِ له ، أيًّا كانت النتائجُ الواقعيةُ التي يتمخّضُ عنها سعيُه وجهادُه ، وميزتُه أنه إراديٌّ مقدورٌ عليه ، فكلُّ مسلمٍ يستطيعُ تحقيقَه ، ويستطيعُ تجنُّبَ الهزيمةِ ، وميزتُه أنَّ المسلمَ يستطيعُ إحرازَه حتَّى لو وَقَفَ أعداءُ الإسلامِ بكاملِ قُواهم لقتالِه وحربِه ، كما هي الحال اليوم :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : ٥٢] .

النَّصْرُ الواقِعِيُّ

إنّ النصرَ الواقعيَّ هو الفوزُ المشهودُ الذي يحرزُه المسلمُ في عالَمِ الواقعِ ، في مضمارِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ لتكونَ هي العليا .

يكونُ المسلمُ منتصراً حينَ يحقِّقُ في الواقعِ مكسباً سَعَى إليه في سبيلِ اللهِ ، أو ينالُ هدفاً جاهدَ مِن أَجْلِه ، وفي هذه الحالة يحرزُ المسلمُ كلا الحُسْنَيَيْنِ ، نصراً مبدئياً ، ونصراً واقعياً .

إلا أنّ النصرَ الواقعيَّ يتوقَّفُ على الإعدادِ الماديِّ ، والإمدادِ الإلهيِّ ، إعدادِ العدّةِ ، وطلبِ النصرِ مِنَ اللهِ تعالى ، وهذا ما كان يفعلُه رسولُ اللهِ ﷺ في جهادِه مع الجاهليةِ الأُولى ، وهذا ما يلزمُنا في جهادِنا مع الجاهليةِ المعاصرةِ .

والإعدادُ الماديُّ يستلزمُ استنفارَ كلِّ طاقاتِ المسلمين ، وتنسيقَ قُواهم البشريةِ الماديّةِ والروحيةِ ، حيث تمتلئُ نفوسُهم عزيمةً ، وحيويةً ، وإيماناً ، وثباتاً ، وتنطلقُ جوارحُهم بذلاً وعطاءً وقوةً ومضاءً ، مع تجريدِ النيةِ للهِ ، وعقْدِ الثقةِ المطلقةِ بهِ .

ولو قُيِّضَ للمسلمين أنْ يعرفوا معنى الآيةِ الكريمةِ :

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وأنْ يُحَلِّلُوها التحليلَ الدقيقَ لعَرَفُوا أنّ المعلوماتيةَ اليومَ والاتصالاتِ هي مِن وسائلِ القوةِ ، ولعرفُوا أنّ علومَ الفيزياءِ ، والكيمياءِ ، والرياضياتِ ، والفَلَكِ هي مِن وسائلِ القوةِ ، ولعرفوا أنّ علمَ النفسِ ، وعلمَ الاجتماعِ ، وعلمَ التربيةِ مِن وسائلِ القوةِ ، وأنّ علمَ الحيوانِ ، وعلمَ النبات ، وعلمَ طبقاتِ

الأرضِ ، وعلوم الوراثةِ ، والهندسةِ الوراثيةِ مِن وسائلِ القوةِ ، إلى ما هنالك مِن علوم أتقنَها الغربيُّون فأحكموا سيطرتَهم على العالَمِ ، وأَمْلَوْا عليه إرادتَهم ، وثقافتَهم ، وعولمتَهم ، ولا حرجَ علينا مطلقاً أنْ نأخذَ ما في رؤوسِهم ، وأنْ نَدَعَ ما في نفوسِهم ، فثقافةُ أيَّةِ أمّةٍ هي مُلْكُ البشريةِ جمعاءَ ، لأنّها بمثابةِ عسلٍ استُخْلِصَ مِن زهراتِ مختلفِ الشعوبِ على مرِّ الأجيالِ ، وهل يعقلُ إذا لَدَغَتْنَا جماعةٌ من النحلِ أنْ نقاطعَ عَسَلَها ؟

ومِن وسائلِ قوةِ المسلمين تشخيصُ الباطلِ ، والقدرةُ على تعريتِه ، والمصابرةُ على تكذيبِه ، وعدوانِه ، ومجابهة مكرِه ، وكيدِه ، وعنادِه ، واليقينُ أنّه إلى زوالٍ ، لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ، وقوله سبحانه :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦] ، ثم الكفرُ بالباطلِ ، وكشفُ أكاذيبِه ، ونزعُ أقنعتِه ؛ لأنّ الكفرَ بهِ شرطٌ للإيمانِ باللهِ ، قال تعالى :

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾

[البقرة : ٢٥٦]

فإذَا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ نيةِ المؤمنين المجاهدين في سبيلِه ، وثباتَ عقيدتِهم ، وتحرُّرَ نفوسِهم ، وشوقَهم إلى لقائِه ، وحنينَهم إلى نعيمِه ، عندئذٍ يتوفّرُ لهم الإمدادُ الإلهيُّ ، فيبطشُ اللهُ بالمجرمين بطشتَه الكبرى ، ويحقِّقُ النصرَ المؤمنين :

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم : ٤٧] ، و﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر : ٥١] ، و﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النساء : ٤٥] .

وإنّ نصرةَ المؤمنين والمظلومين قد تبطؤُ لحكمةٍ بالغةٍ يعلمُها اللهُ تعالى ، وربما لا تدركُها عقولُنا ، أو لخيرٍ عميمٍ ادَّخَرَه لهم ، أو ليعلمَ الثابتين منهم على عقيدتِهم ، الصابرين على آلامِهم ، والمُوفِين بعهدِهم ، الصادقين في تضحياتِهم ، لتكونَ هذه الصفوةُ المؤمنةُ حريصةً على حمايةِ النصرِ المرتقَبِ ، الذي لم تَنَلْهُ إلا بالدماء الزكية ، والأرواح الطاهرة ، ولتكونَ قادرةً على تحمُّل أعبائِه في إقامةِ الحقِّ ، وبسطِ العدلِ ، ونشرِ حريةِ العبادةِ ، وإشاعةِ الخيرِ بين الناسِ ، وتحريرِهم من عبوديةِ الطواغيتِ ، وقطعِ دابرِ الفتنةِ والفسادِ في الأرضِ ، قال تعالى :

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ [مريم : ٨٤] ، وقال :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٤ـ٥] .

* * *

قصة عبد الله بن سلام

هاهو الصحابيُّ الجليلُ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ يحدثنا عن قصته فيقول : « لما سمعتُ بظهورِ النبيِّ ﷺ ، أخذتُ أتحرَّى عن اسمِه ، ونسبِه ، وصفاتِه ، وزمانِه ، ومكانِه ، وأطابقُ بينَها وبينَ ما هو مسطورٌ عندنَا في

الكتبِ ، حتى استيقنتُ مِن نبوَّتِه ، وتثبتُّ مِن صدقِ دعوتِه ، ثم كنمتُ ذلك عن اليهودِ ، وعقلتُ لساني عن التكلُّم فيه ، إلى أنْ كان اليومُ الذي خرجَ فيه الرسول عليه الصلاةُ والسلامُ مِن مكةَ قاصداً المدينةَ ، فلما بلغَ يثربَ ، ونزلَ بقباء ، أقبلَ رجلٌ علينا ، وجعلَ ينادي في الناسِ معلناً قدومَه ، وكنتُ ساعتئذٍ في رأسِ نخلةٍ لي أعملُ فيها ، وكانت عمّتي خالدةُ بنتُ الحارثِ جالسةً تحتَ الشجرةِ ، فما إنْ سمعتُ الخبرَ حتى هتفتُ : اللهُ أكبر ، اللهُ أكبرُ ، فقالتْ لي عمّتي حين سمعتْ تكبيري : خيَّبك اللهُ ، واللهِ لو كنتَ سمعتَ بموسى بنِ عمرانَ قادماً ما فعلتَ شيئاً فوقَ ذلك !! فقلتُ لها : أيْ عمّة ، إنه ـ واللهِ ـ أخو موسى بنِ عمرانَ ، وعلى دينِه ، وقد بُعثَ بما بُعِثَ به ، فسكتتْ ، وقالت : أهو النبيُّ الذي كنتم تخبروننا أنّه يُبعَثُ مُصدِّقاً لِمَن قَبْلَه ، ومتمِّماً لرسالاتِ ربِّه ؟ فقلت : نعم ، قالت : فذاك إذن ، ثمّ مضيتُ من توِّي إلى رسول الله ﷺ ، فرأيتُ الناسَ يزدحمون ببابِه ، فزاحمتُهم حتى صرتُ قريباً منه ، فكان أولَ ما سمعته منه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلاَمَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ » ، فجعلتُ أتفرَّسُ فيه ، وأتملَّى منه ، فأيقنتُ أنّ وجهَه ليس بوجهِ كذَّاب ، ثمّ دنوتُ منه ، وشهدتُ أنّه لا إلهَ إلاّ اللهُ ، وأنّ محمداً رسولُ اللهِ ، فالتفتَ إليَّ ، وقال : (ما اسمُك ؟) فقلتُ : الحصينُ بنُ سَلامٍ ، قال : بلْ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ ، فقلتُ : نعم ، عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ ، والذي بعثكَ بالحقِّ ما أحبُّ أنّ لي به اسماً آخرَ بعدَ اليومِ ، ثمّ انصرفتُ مِن عندِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى بيتي ، ودعوتُ زوجتي ، وأولادي ، وأهلي إلى الإسلامِ ، فأسلموا

جميعاً ، وأسلمتْ معهم عمّتي خالدةٌ ، وكانت شيخةً كبيرةً .

يقول عبدُ الله بنُ سلامٍ : ثم رجعتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، وقلتُ له : يا رسولَ اللهِ إنّ اليهودَ قومُ بهتانٍ وباطلٍ ، وإنّي أُحِبُّ أن تدعوَ وجوهَهم إليك ، وأنْ تسترَني عنهم في حجرةٍ من حجراتِك ، ثم تسألَهم عن منزلتي عندهم ، قبل أنْ يعلمُوا بإسلامي ، ثم تدعوَهم إلى الإسلامِ ، فإنّهم إنْ علِموا أنني أسلمتُ عابوني ، ورموني بكل ناقصةٍ ، وبَهَتُوني ، فأَدْخَلَني النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ في بعضِ حُجُراتِه ، ثمّ دَعَاهم إليه ، وأخذَ يَحُضُّهم على الإسلامِ ، ويحبِّبُ إليهم الإيمانَ ، ويذكِّرُهم بما عرفُوه في كتبِهم مِن أمْرِه ، فجعلوا يجادلونه بالباطلِ ، ويمارونه في الحقِّ ، وأنا أسمعُ ، فلما يئسَ مِن إيمانِهم قال لهم : (ما منزلةُ الحصينِ بنِ سلام فيكم ؟) فقالوا : سيدُنا ، وابنُ سيدِنا ، وحَبرُنا ، وعالِمُنا ، وابنُ حَبرنا وعالِمِنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : أفرأيتم إنْ أسلمَ أفتُسلِمون ؟ قالوا : حاشا للهِ ، ما كان ليسلمَ ، أعاذه اللهُ مِن أنْ يسلمَ ، فخرجتُ إليهم ، وقلت : يا معشرَ اليهودِ اتّقُوا اللهَ ، واقبلوا ما جاءكم به محمَّدٌ ، فو اللهِ إنكم لتعلمون أنّه رسولُ الله ، وتجدونه مكتوباً عندكم في التوراةِ باسمِه وصفتِه ، وإني أشهد أنه رسولُ اللهِ ، وأومنُ به ، وأصدِّقُه ، وأعرفُه ، فقالوا : كذبتَ ، واللهِ إنك لشرُّنا ، وابنُ شرِّنا ، وجاهلُنا وابنُ جاهلِنا ، ولم يتركوا عيباً إلا عابوني به ، فقلتُ لرسول اللهِ : ألم أقل لك : إنّ اليهود قومُ بهتانٍ وباطلٍ ، وإنهم أهلُ غدرٍ وفجورٍ ؟ »[1] .

(١) هذه القصة أخرجها بألفاظها ابن هشام في السيرة النبوية (ص : ٤٩ـ٥٠) .

وقد أخرج البخاري عَنْ أَنَسٍ قَالَ : « بَلَغَ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ نَبِيٌّ ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ ، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفاً جِبْرِيلُ) ، قَالَ : فَقَالَ عَبْدُ اللهِ : ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنْ الْمَلاَئِكَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِن الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ : فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا) ، قَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ ، فَجَاءَتْ الْيَهُودُ ، وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ الْبَيْتَ ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ : (أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ ؟) قَالُوا : أَعْلَمُنَا ، وَابْنُ أَعْلَمِنَا ، وَأَخْيَرُنَا ، وَابْنُ أَخْيَرِنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ ؟) قَالُوا : أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، فَقَالُوا : شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا ، وَوَقَعُوا فِيهِ »[1] .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلاَمٍ قَالَ : « لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ[2] النَّاسُ إِلَيْهِ ، وَقِيلَ : قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ،

---

(١) البخاري (٣١٥١) .

(٢) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٧/ ١٥٨) : [انجفل الناسُ إليه أي ذهبوا مسرعين إليه ، يقال : جفل ، وأجفل ، وانجفل] .

قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلاَمَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ »[1] .

هذه الحقائقُ الناصعةُ المستنبطةُ مِن كتابِ اللهِ ، وسنةِ رسولِه ، ومِنَ السيرةِ النبويةِ ، والتي تضيءُ سبيلَ النصرِ والصبرِ معاً ، أضعُها بين أيدي إخوتِنا في الأراضي المحتلةِ ، فلعلّ اللهَ ينفعُنا بها جميعاً .

* * *

القمحُ وفوائدُه

إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ القمحَ لبني البشرِ غذاءً كاملاً ، ولكنَ عنايةَ اللهِ سبحانه وتعالى جَعَلَتْ هذا القمحَ ينبتُ في كل بقاعِ الأرضِ ، ينبتُ في السهولِ ، وينبتُ في الجبالِ ، وينبتُ في الأغوارِ ، وينبتُ في الأجواءِ الباردةِ ، وينبتُ في الأجواءِ الحارّةِ ، وينبتُ في الأجواءِ المعتدلةِ ، وفي كلِّ لحظةٍ من لحظاتِ الزمنِ هناك قمحٌ على وجهِ الأرضِ ينبتُ ، ولكنَّ الإبداع الإلهيَّ في هذه الثمرةِ أنه جَعَلَها كاملةَ الغذاءِ ، ففيها غلافٌ خارجيٌّ يزن تسعةً في المئةِ من مجموع وزنِها ، يُسمَّى عند الناس النُخالة ، وفيها قشرةٌ رقيقةٌ تنطوي على مادةٍ آزوتيةٍ لا تزيدُ على ثلاثةٍ في المئة من وزنِها ، وفيها الرُّشَيْمُ الكائنُ الحيُّ الذي ينبتُ إذا توافرت له شروط الإنباتِ ، ووزنُه لا يزيدُ على أربعةٍ في المئةِ مِن وزنِ حبَّةِ القمحِ ،

(١) الترمذي (٢٤٨٥) ، ابن ماجه (١٣٣٤) ، أحمد (٢٣٨٣٥) .

والأربعةُ والثمانون في المئة نَشاءٌ خالصٌ ، ماذا نفعل نحنُ ؟ ننزعُ عن القمحةِ غلافَها ، وغشاءَها ، ولا يبقى لنا إلا النّشاءُ الخالصُ ، أمّا هذا الغلافُ الذي يسمِّيه الناسُ نُخالةً ، ففيه ستةُ فيتامينات ، (ب١ ، ب٢ ب٣ ، ب٤ ، ب٥ ، ب٦) ، وفيتامينات أخرى في هذا الغلافِ .

وفي هذا الغلافِ مادةٌ فسفوريةٌ هي غذاءٌ للدماغِ والأعصابِ ، وفيه حديدٌ يَهَبُ الدمَ قوةً ، وحيويةً ، ويُعِينُ على اكتسابِ الأوكسجين مِنَ الرئتين ، وفيه الكلسيوم ، الذي يبني العظامَ ، ويقوّي الأسنانَ ، وفيه السيليكون ، الذي يقوّي الشعرَ ، ويزيدُه قوةً ولمعاناً ، وفيه اليودُ الذي ينشِّطُ عملَ الغدّةِ الدَرَقِيَّةِ ، ويُضفِي على آكلِهِ السكينةَ والهدوءَ ، وفيه البوتاسيوم ، والصوديوم ، والمغنزيوم ، تدخلُ هذه المعادنُ كلُّها في تكوينِ الأنسجةِ ، والعصاراتِ الهاضمةِ ، أما نحن فننزعُ عن حبَّةِ القمحِ قشرَها ، ونرمِيه للبهائمِ ، ونأكلُ هذا النشاءَ الصافيَ ، الذي هو كما وَصَفَه بعضُ الأطباءِ بأنّه غراءٌ جيدٌ للمعدةِ ، وهو يذمُّه بهذا الوصفِ ، وهذا الإبداع الإلهي لنا ، أنْ نأكلَ القمحَ بقشرِه ، حتى نستفيدَ مِن هذه الموادِّ التي أودَعَهَا اللهُ في قشرةِ القمحِ .

إذا غُلِيَتْ هذه القشورُ بالماءِ الساخنِ كانتْ مهدئةً للسعالِ ، والزكامِ ، وإذا شُرِبَ هذا الماءُ المغليُّ كان قابضاً للأمعاءِ ، وكان دواءً لتقرُّحاتِ المعدةِ ، وللزحار ، وغذاءً للجلدِ ، ووقايةً له من أمراضِه ، وعلى رأسِها الإكزيما .

لذلك حينمَا نأكلُ كما أرادَ اللهُ لنا أنْ نأكلَ ، وحينما نطبِّقُ سنَّةَ النبيِّ

عليه الصلاةُ والسلامُ في الأكلِ ، نضمنُ لأنفسِنا الصحةَ ، والبُعدَ عن الأمراض .

عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ : سَأَلْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ فَقُلْتُ : « هَلْ أَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّقِيَّ[١] ؟ فَقَالَ سَهْلٌ : مَا رَأَى[٢] رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّقِيَّ ، مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللهُ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ . قَالَ : فَقُلْتُ : هَلْ كَانَتْ لَكُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنَاخِلُ ؟ قَالَ : مَا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مُنْخُلاً مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللهُ حَتَّى قَبَضَهُ ، قَالَ : قُلْتُ : كَيْفَ كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ الشَّعِيرَ غَيْرَ مَنْخُولٍ ؟ قَالَ كُنَّا نَطْحَنُهُ ، وَنَنْفُخُهُ فَيَطِيرُ مَا طَارَ ، وَمَا بَقِيَ ثَرَّيْنَاهُ[٣] فَأَكَلْنَاهُ »[٤] .

ووردَ في الأثرِ أنّ أَوَّلَ بدعةٍ ابتدَعَها المسلمون بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ نخلُ الدقيقِ .

* * *

(١) جاء في تحفة الأحوذي (٧/ ٢٣) : [والنقي بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء يعني الحُوَّارَى ، بضم الحاء ، وتشديد الواو ، وفتح الراء ، وهو الذي نُخِلَ مرةً بعدَ مرةٍ حتى يصيرَ نظيفا أبيضَ] .

(٢) في تحفة الأحوذي (٧/ ٢٣) : [أي ما رآه ، فضلا عن أكله ، ففيه مبالغة لا تخفى] .

(٣) قال ابن حجر في الفتح (٩/ ٥٥٠) : [ثرَّيناه أي بللناه بالماء] .

(٤) البخاري (٥٠٩٧) ، ابن ماجه (٣٣٣٥) .